حين حَكَتْ جدرانُ بيتِنا

كنتُ بيتًا من حجرٍ رمليّ، أطلُّ على السّفح الجنوبيّ، أتنفّس زهر الصّعتر، وأستظلّ بظلّ السّنديانة العتيقة. شُيّدتُ على عَجلٍ من حنين الفلّاح، حين كانت الأيدي تبني بقدر ما تُصلّي، وحين كانت الحجارة تفهم لُغة الدّعاء. في كلّ حجرٍ من جدراني نبضةُ قلبٍ كانت تخشى الغياب. كنتُ مأوى العائلة، وسرَّ الجدّة الّتي لا تنام إلّا على رائحة الخبز السّاخن، وحكايات العمّ أحمد، وأغنيةٍ تهمسها للرّيح قبل أن تُطفئ قنديلها.

مرّت عليَّ فصول كثيرة، وكان الفجرُ يبدأ دائمًا بصوت الدّيكة ووقع الأقدام الصّغيرة تُهرول نحو البئر. كانت الجدّة تُوقظ الصّغار قبل أن يستيقظ الضّوء، تهيّئ خبز التّنّور وتغمس أصابعها في الطّحين كأنّها تكتب دعاءً على وجه الصّباح. كنتُ أتنفّس بخار القهوة، وأُصغي إلى حكايات العمّ أحمد وهو يروي أخبار القرية بصوتٍ عميقٍ كجرسٍ قديم. في فنائي كانت الحياة تُنشد نفسها: الدّجاج يبحث عن الحَبّ، الأطفال يتسابقون نحو السّهل، والرّيح تمرّ على ستائري كأنّها تتحسّس طفولتها. كنتُ أرى في وجوههم معنى البدايات، وأحفظ في جدراني همساتهم الأولى، تلك الّتي كانت تُشبه وعدًا بأن يبقى هذا المكان بيتًا، مهما طال الغياب.

مرّت مواسمُ كثيرةٌ، وأنا أرى النّاس يكبرون ويشيخون ويغيبون في صمتٍ يشبه الغروب. لم أتعجّب، فقد كنتُ بيتًا لا يموت، بيتًا سيبقى أثره حاضرًا مع تغيّر الأسماء، فقد وُلدتُ لأحرس ذاكرةً لا تفنى. كنتُ أسمع المطر على قرميدي كتراتيلَ قديمة، وأحسُّ بالدّفءِ يتسلّل من موقدٍ صغيرٍ في الزّاوية يتعشّى كلّ ليلة حطب القرية. هناك، كانت الحياة تُدار ببساطةٍ مع جلسات الجدّ والجدّة الّتي لا تموت، تنضح حكمةً، كأنّ اليومَ لا يطلب من الغد شيئًا، في داخلي عرف الجميع طعم الحياة الحلوة ببساطتها.

ثمّ جاءت الحرب، في يومٍ قبيح، تطايرت الأوراق الخريفيّة الّتي وقعت ذات بداية خريفيّة، حلّقت الطّيور عاليًا، ورسمت الحرب ملامحها البشعة، وجهها لا يشبه البشر. سمعتُ جدارات الصّوت ترجف جدراني. لم أخفْ، بل أيقنتُ حينها أنّ الصّغار الّذين ربّيتُهم سيصيرون في لحظةٍ رجالًا يحملون البنادق بدل الأقلام. هم كتبوا بحضورهم قصيدة الأرض الّتي لن تستسلم. وفجأة، اخترقت الصّواريخ صمتي، وسقطت نوافذي كعيونٍ أُغمضت قسرًا. كنتُ أرى الرّمادَ يصعد إلى السّماء، وأشمُّ رائحةَ الزّيت المختلط بالغبار. كلُّ حجرٍ منّي كان ينزف ذاكرةً. وحين هدأ الصّخب، بقيتُ واقفًا، نصف بيتٍ ونصفَ قبرٍ للضّحكات القديمة. فهل انتهت الحياة عند هذه اللّحظة؟!

انقضت أعوامٌ طويلة. رحلَ الكلّ عنّي إلّا الريح. إذ كانت تمرّ بي كَمَنْ يزور قبرًا قديمًا، تُزيح الغبار عن وجهي، وتهمس: "أما زلتَ هنا؟". فأكتب بقايا قصّتي على أطلال الجدران الشّاهدة على زمنٍ

ولّى ولن يعود، وكنتُ أجيبها بصمتي الخانق: "أنا باقٍ ما دام في التّراب أثرُهم". كنتُ أرى البيوت الحديثة تُبنى حولي من زجاجٍ باردٍ، وقرميد أسود لا يعرف الدّفء، وكنتُ أبتسم، فالجدران الجديدة لا تحفظ الأسرار، لم تعِشْ الحنين إلى الماضي ولم تشهده. هي بيوتٌ بلا قلب، وروایاتها بلا سِحر.

حتّى جاء نهار ربيعيّ، سمعتُ فيه وقعَ خطواتٍ مألوفة. كانت حفيدة الجدّة قد أتت، يارا الفتاة الشّقية، تركت المدينة، وعادت برفقة أولادها إليّ. وقفتْ أمامي طويلًا، لم تقلْ شيئًا، لكنّ عينَيها قالتا ما لم تقله السّنون. دمعتان انهمرتا على عجلٍ، صورة الجدّة ما زالت تعبق في ذاكرتها حبًّا ورغبة في العودة. مدّت يدها، مسحت الغبارَ عن جداري، وقالت بصوتٍ خافت: "اشتقنا إليك". تسلّل دفءٌ غريبٌ في أوصالي، كأنّ الحياة عادت إليّ من رمادها. شعرتُ بأنّني العنقاء الّتي نفضت الرّماد وعادت إلى الحياة. نعم، أخذت يارا القرار بترميمي، لا بالحجارة وحسب، بل بالحكايات أيضًا. غنّت الجدّة في صورٍ قديمة رفعتها على جدراني مجدّدًا، وتسلّل عبق القهوة من جديد يحكي حكايات لم تنتهِ بعد. جلست وأطفالها على عتبة المنزل، وراحوا يضحكون على أيّامٍ لم يعيشوها، وكأنّ ذاكرتي صارت لهم ذاكرةً ثانية.

حينها حكت الجدران، لم أنطق بالكلمات، لكنّ الصّمت امتلأ صوتًا. فانسكب الكلام من مسام الحجارة كما يفيض الضّوء من شقّ الفجر. قلتُ لهؤلاء الأطفال الّذين عايشت أهلهم: "أنا أنتمي إليكم كما تنتمون إليّ. في شقوقي بقايا أصواتكم، وفي سقفي ظلّ صلواتكم. أنا التّراثُ الّذي لا يُحفظ في الكتب، بل في الوجوه الّتي تتذكّر شجرة الصّنوبر وشجرة الخروب حيث كان الصّغار يجلسون تحتها، وموقد الفحم، وإبريق الفخّار والبقرة الّتي شربوا حليبها حتّى صاروا أقوياء، وسنابل القمح الذّهبيّة الّتي لعبوا الغميضة بينها، وجلسات تحضير الكشك على سطحي، والطّربوش الأحمر الّذي تركه الأب على حافة الزّمن، ورحل، ومفتاح غرفة المؤن، وسهرات النّار، والحطب الّذي جُمِّع من هنا وهناك، وإبريق الشّاي، ولبس القمباز الخاص بالسّهرات".

عرفتُ أن لا شيء يموت حقًّا، فالتّراث ليس حجارةً نرثها فحسب، بل جذوةٌ تمتدّ في الأرواح وتبقى متغلغلة في داخلها. هو ما يُعيد الجيلَ الشّابّ إلى أصالته القديمة كلّما ضلّ طريقه في زحمة عصر الذّكاء الاصطناعيّ والعولمة، وما يذكّره بأنّ جذوره أكثر عمقًا من كلّ حداثةٍ عابرة. فحين تُصغي الأجيال الجديدة إلى حكايات الجدران، تتعلّم أنّ الصّبرَ ليسَ ضعفًا، وأنَّ الانتماءَ ليس مجرّد ذكرى، بل فعلُ وفاءٍ للحاضر والمستقبل معًا. وكلّما حكَت الجدرانُ عمّن بنوها، ازداد الشّبابُ يقينًا بأنَّ الوطنَ يبدأُ من الذّاكرة، وأنَّ مَنْ يعرف ماضيه لا يتوه في غدهِ.

يارا علي مرعي

الأول الثّانوي